■ حكاية فى المراجع

الزعم بأن مالدينا من دنا يتحكم فى الوجود البشرى كله هو زعم شائع. وهذا له تأثيره فى إضفاء الشرعية على بنية المجتمع الذى نعيش فيه، ذلك أنه لايقتصر أمره على تأكيد الزعم بأن مايوجد بيننا من اختلاف فى المزاج والقدرة والصحة البدنية والعقلية هو اختلاف يشفر له فى جيناتنا، وإنما هو يزعم أيضاً أن البنية السياسية للمجتمع ـ ذلك المجتمع التنافسى الاستغلالى الطبقى الذى نعيش فيه، والذى يمنح أفراده مكافئات متمايزة حسب اختلافهم فى المزاج والقدرات المعرفية والمواقف الذهنية ـ بنية هذا المجتمع السياسية هى أيضاً تتحتم بواسطة مالدينا من دنا، وبالتالى فإنها إذن غير قابلة للتغير. على أنه رغم كل شىء، فنحن لوكنا حتى يختلف الواحد منا عن الآخر بيولوجيا، إلا أن هذا فى حد ذاته لايضمن أن المجتمع سيعطى سلطاناً وأوضاعاً اجتماعية مختلفة للأفراد المختلفين. بمعنى، أننا حتى نجعل ايديولوجية الحتمية البيولوجية أيدولوجية كاملة، فإنه يجب أن تكون لدينا نظرية عن طبيعة بشرية لاتقبل التغير، طبيعة بشرية مشفر لها فى جيناتنا.

وكل فلسفة سياسية يجب أن تبدأ بنظرية عن الطبيعة البشرية. ولا شك فى أننا لو كنا لانستطيع أن نعرف ماهو إنسانى حقا، فإننا لن نستطيع أن نحاج لتأييد هذا الشكل أو الآخر من أشكال التنظيم الاجتماعى. والثوريون الاجتماعيون على وجه الخصوص، يجب أن تكون لديهم فكرة عما يكونه ماهو حقاً إنسانى، ذلك أن الدعوة للثورة هى دعوة لإراقة الدم، وإلى إعادة تنظيم بالجملة للعالم. والمرء لايستطيع أن يدعو إلى تغيير عنيف لما هو موجود، دون الادعاء بأن ما سيوجد بعدها سيكون أكثر توافقاً مع الطبيعة الحقيقية للوجود الإنسانى. وبهذا، فإنه حتى الاشتراكيين الذين كانت لهم رؤية تاريخية للمجتمع، إلا أنهم يؤمنون بأن ثمة طبيعة حقيقية للبشر، وأن البشر يحققون جوهر ذاتهم بأن يعالجوا الطبيعة معالجة اجتماعية تُرسم لرفاه البشر.

ومشكلة الفلاسفة السياسيين ظلت دائماً أنهم يحاولون تبرير وجهة نظرتهم الخاصة عن الطبيعة البشرية. وقبل القرن السابع عشر، كان البحث فى هذا المجال يلتمس الحكمة الإلهية[1]. فالله قد خلق الناس على نحو معين. وفى الحقيقة فإنهم قد خلقوا على صورة الله، وإن كانت صورتهم مهتزة بعض الشىء، وفوق ذلك فالبشر هم أساساً خطاة منذ وقت سقوط آدم وحواء. ولكن المجتمع الحديث العلمانى التكنولوجى لايمكنه أن يستقى دعاواه السياسية من تبرير سماوى. وابتداء من القرن السابع عشر وماتلاه، حاول الفلاسفة السياسيون خلق صورة للطبيعة البشرية، تتأسس على بحث ما، يلتمس وجهة نظر عن العالم من المذهب الطبيعى، وهكذا.. فإن توماس هربز فى كتابه

(١) الكلام هنا يتناول فلسفات العالم الغربى (المترجم).

«لوياثان»[1] الذى يحاج فيه بضرورة وجود ملك، يبنى صورة للطبيعة البشرية، قوامها من أبسط الحقائق البديهية عن طبيعة البشر ككائنات حية. فعند هوبز، أن البشر مثلهم مثل الحيوانات الأخرى، هم أشياء تضخم وتعظم من ذاتها، وهى ببساطة يلزم لها أن تتزايد وأن تحتل العالم. ولكن العالم مكان محدود الموارد، وبهذا فإنه من الضرورى أنه سيحدث أن يتصارع البشر على هذه الموارد أثناء توسعهم، وستكون النتيجة هى ماسماه «حرب الجميع ضد الجميع». واستنتاج هوبز هو أننا نحتاج لوجود ملك؛ ليمنع هذه الحرب من تدمير كل شىء.

والزعم بأن الكائنات الحية وخاصة البشر، تتزايد دون حدود، وأن العالم الذى يزيد فيه هو متناه ومحدود، هما الزعمان الأساسيان اللذان أديا إلى نشأة النظرية البيولوجية الحديثة عن الطبيعة البشرية. وقد عادا ليظهرا على السطح فى بحث القس الموقر مالتوس الذى كتبه عن السكان، وذلك فى قانونه المشهور الذى يقول إن الكائنات الحية يزيد عددها بمتوالية هندسية، بينما تزيد الموارد اللازمة لإعاشتها بمتوالية حسابية، وبالتالى فإنه مرة ثانية، يكون من الواجب أن يحدث صراع من أجل البقاء. وكما نعرف جميعاً فإن داروين أخذ هذه الفكرة عن الطبيعة ليبنى عليها نظريته عن الانتخاب الطبيعى. وحيث إن كل الكائنات الحية مشتبكة فى صراع من أجل البقاء، فإن من يكون منها مهيأ من حيث الشكل والهيئة، ومن حيث وظائف الأعضاء، ومن حيث السلوك، تهيئة أفضل لأن يخلف المزيد من الذرية فى هذا الصراع، فإنه سوف يفعل ذلك، وستكون النتيجة أن نوع هذه الكائنات هو الذى سيغلب على الأرض. والرؤية الداروينية هى أن أيا ما قد تكونه الطبيعة البشرية، فإنها قد تطورت بالانتخاب الطبيعى مثلها مثل أى شىء، يتعلق بالبشر، الذين هم على أى حال من الكائنات الحية. وإذن، فإن ما نكونه حقاً إنما هو نتيجة لبليونى سنة من التطور ابتداء من أقدم الكائنات الحية البدائية، ووصولاً إلينا نحن.

وقد تنامت النظرية التطورية عبر المائة سنة الأخيرة، وأصبحت نظرية راقية تكنولوجياً وعلمياً، ذلك أن الأفكار الغامضة عن التوارث قد تحولت إلى نظرية دقيقة جداً عن بنية دنا ووظيفته، وبالتالى فإن النظرية التطورية للطبيعة البشرية قد أنشأت جهازاً نظريا حديثاً يبدو وكأنه جهاز علمى، ويجعل النظرية تبدو فى كل شذرة منها وكأنها لايمكن تحدّيها، مثلها فى ذلك مثل ما كانت تبدو عليه فى عصر سابق نظرية الحكم بالعناية الإلهية. وماحدث بالفعل هو أن ما قاله هوبز عن حرب الجميع ضد الجميع قد تحول إلى صراع، بين جزيئات دنا للسيادة والهيمنة على بنيات الحياة البشرية.

(١) وحش بحرى ضخم يرمز للشر فى الإنجيل (المترجم).

وأحدث شكل لأيديولوجية المذهب الطبيعى* عن الطبيعة البشرية هى مايسمى بالبيولوجيا الاجتماعية. وهى قد ظهرت على المسرح العام منذ ما يقرب من خمس عشرة سنة، وأصبحت من وقتها النظرية السائدة، التى تبرر استمرار المجتمع كما نعرفه. وهى نظرية تطورية ووراثية، تستخدم كل الجهاز النظرى للبيولوجيا التطوريه الحديثة، بما فى ذلك قدر كبير من رياضيات عويصة، تتم بعدها ترجمتها إلى القارئ غير الخبير فى كتب سطحية ذات صور خلابة، وفى مقالات المجلات وتقارير الصحف. فالبيولوجيا الاجتماعية هى أحدث المحاولات، وأكثرها تضليلاً من أجل إقناع الناس بأن الحياة هى إلى حد كبير كما يلزم أن تكون عليه، وربما حتى هى كما ينبغى أن تكون عليه.

وقد تم بناء نظرية البيولوجيا الاجتماعية عن الطبيعة البشرية فى ثلاث خطوات: الأولى، هى توصيف ماتكون عليه الطبيعة البشرية. فينظر المرء إلى أفراد البشر من حوله ويحاول أن يبنى توصيفاً كاملاً بقدر الإمكان للقسمات، التى يقال إنها مشتركة بين كل البشر فى كل المجتمعات فى كل الأماكن وكل الأزمنة.

والخطوة الثانية هى الزعم بأن هذه الخصائص التى يبدو أنها خصائص كلية عند البشر، هى فى الحقيقة مشفرة فى جيناتنا، أى فيما لدينا من دنا. فهناك جينات للنزعة الدينية، وجينات للنزعة الاستغلالية، وجينات لأى من الخصائص التى يقال إنها جبلّية فى نفسية الإنسان وفى النظام الاجتماعى البشرى.

وهذان الزعمان ـ أى الزعم بطبيعة بشرية كلية وأنها مشفرة فى جيناتنا وغير قابلة للتغير ـ هما زعمان فيهما الكفاية كنظرية بيولوجية عن الطبيعة البشرية بالمعنى التوصيفى الخالص. فهذا ما نكونه نحن؛ وعلينا أن نقبله أو نرفضه. ولكن النظرية البيولوجية الاجتماعية ـ وقد بنيت على النظرية التطورية ـ تمضى لخطوة أبعد من ذلك، بما ينبغى عليها حتى تستوفى برنامجها فالنظرية يجب أن تفسر، وبمعنى ما يجب أيضاً أن تبرر، كيف يتأتّى لنا أن نحوز هذه الجينات بذاتها بدلاً من بعض جينات أخرى، ربما كانت ستجعل لنا طبيعة بشرية جد مختلفة.

هكذا فإن النظرية تواصل طريقها إلى الخطوة الثالثة، وهى الزعم بأن الانتخاب الطبيعى ـ من خلال تمايز الأنواع المختلفة من الكائنات الحية، فى الحفاظ على بقائها وفى تكاثرها ـ يؤدى حتماً إلى مالأفراد البشر من خصائص وراثية محددة بذاتها، وهى تلك الخصائص المسئولة عن شكل المجتمع. وهذا الزعم يدعم من حجة إضفاء الشرعية؛ لأنه يذهب لما هو أبعد من مجرد التوصيف؛ ليؤكد الزعم بأن الطبيعة البشرية

* المذهب الطبيعى مذهب يرد الأشياء إلى الطبيعة وحدها، ويرجع الظواهر كلها إليها. وفى الأخلاق مثلا تفسر الحياة الأخلاقية بأنها إمداد للحياة البيولوجية. (المترجم).

الموصوفة هى طبيعة حتمية، بناء على القانون الكلى للصراع من أجل البقاء وبقاء الأصلح. وبهذا المعنى فإن النظرية البيولوجية الاجتماعية عن الطبيعة البشرية ترتدى عباءة من نظرة كلية، ومن ثبات مطلق. وعلى كل، فما دمنا قد صُنعنا على مانحن عليه عن طريق تطور استمر لثلاثة بلايين عام، فهل لنا حقاً أن نعتقد إن مائة يوم من ثورة ما سوف تغيرنا؟

وعلماء البيولوجيا الاجتماعية عندما ساروا أول خطوة لهم، وهى مازعموه من توصيف صحيح لما هو كلّى فى كل أفراد البشر، فإنهم بذلك كانوا يخطون ما يشبه بدرجة أو أخرى تلك الخطوة الأولى، التى يمشيها كل من ينظرون للطبيعة البشرية، وذلك بأن ينظروا فيما حولهم حتى يروا ماذا يكون عليه الناس فى مجتمعهم، وإلى حد ما بأن يرووا قصة حياتهم هم أنفسهم. وهم عندما ينظرون داخلياً إلى أنفسهم، وخارجياً إلى المجتمع الرأسمالى الحديث ليوصفوا الطبيعة البشرية، لايلبثوا أن يوسعوا من هذه الطبيعة بعض الشىء بأن ينظروا فى السجل الأنثروبولوجى*؛ حتى يؤكدوا لنا أن هذه العناصر نفسها بذاتها، التى وجدوها فى القرن العشرين فى أمريكا الشمالية وبريطانيا، هى أيضاً تبدو للعيان فى شكل أو آخر بين الأفراد المنتمين للعصر الحجرى فى غينيا الجديدة. ولسبب ما فإنهم لاينظرون كثيراً إلى السجل التاريخى للمجتمع الأوروبى، الذى يبدو أنهم يجهلونه تماماً، ولكنهم ربما يشعرون بأنه إذا كان يظهر على سكان أعالى غينيا وسكان أعالى أسكتلندا نفس الخصائص حاليا، فإنه لايمكن أن يكون قد حدث تغير كثير فى ١٥٠٠ سنة من التاريخ المسجل.

ترى ما تلك الكليات البشرية التى عثر عليها علماء البيولوجيا الاجتماعية؟ إن أفضل ما يفعله المرء هو أن ينظر فى تلك الوثيقة التى صدرت عن نظرية البيولوجيا الاجتماعية، وهى وثيقة لها أكبر النفوذ، وبمعنى ما.. فإنها الوثيقة التأسيسية لها، ألا وهى كتاب إ. أ. ويلسون (البيولوجيا الاجتماعية: التركيب الجديد)(١). ويخبرنا البروفيسور ويلسون مثلا، بأن البشر لديهم نزعة لتلقّن العقيدة. فهو يقول «البشر يسهل عليهم سهولة غير معقولة أن يتلقنوا العقائد فهم ينشدونها»(٢). وهم يتميزون بالإيمان الأعمى: «فالإنسان يفضل الإيمان على المعرفة»(٣). ويجب أن نلاحظ أن هذه المقولة موجودة فيما يسمى بأنه مؤلّف علمى، يُستخدم كمرجع فى المناهج الدراسية عبر العالم كله، ويمتلئ برياضيات بيولوجيا السكان الحديثة، وقد أُتخم بملاحظات وحقائق

* الأنثروبولوجيا علم الإنسان، الذى يبحث فى أصل الإنسان وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته. (المترجم).

عن سلوك كل أنواع الحيوان، مما يتأسس على ما سمّته مجلة (تايم) بأنه «القوانين الحديدية للطبيعة». على أنه لاشك بأن القول بأن «الانسان يفضل الإيمان على المعرفة»، هو أكثر اتفاقاً مع أسلوب حكمة الحانات، أى ذلك النوع من الملاحظات التى قد يذكرها الواحد منا لأحد أصدقائه فى حانة الحى، فى أعقاب محاولة محبطة هى على وجه التحديد محاولة حث الشخص الذى يشغل المكتب المجاور على أنه ينبغى أن يقوم بعمله على نحو مختلف. ومن بين نواحٍ أخرى من الطبيعة البشرية، يقال إن هناك نزعة حقد كلية وتعصباً أسرياً: فيقال لنا «البشر ذوو وَعْى حاد بشجرة نسبهم وبقدرة ذكائهم على رسم المكائد»(٤). ورهاب الأجانب، أى الخوف من الغرباء، هو جزء من تجهيزاتنا الكلية. «وأحد مشاكل الإنسان هى أن وجوه الاستجابة ما بين الجماعات مازالت فظة وبدائية وغير كافية للعلاقة المتوسعة من الانتماء الإقليمى، تلك العلاقة التى ألقت بها المدنيّة على عاتق الإنسان»(٥). كما يقال لنا إن إحدى نتائج ذلك هى أن «أكثر الصفات البشرية تميزاً قد انبثقت أثناء مرحلة التطور الاجتماعى، التى حدثت من خلال الحروب بين القبائل، ومن خلال الإبادة الجماعية للأعراق»(٦). ثم هناك ما بين أفراد الجنسين من علاقة. فسيطرة الرجال وتفوقهم هما جزء من الطبيعة البشرية. فيكتب ويلسون أنه «من بين الصفات الاجتماعية العامة لدى البشر وجود منظومات للسيطرة العدوانية؛ حيث يسيطر الذكور على النساء»(٧).

والقائمة لم تكتمل بعد. على أن هذه النظرة ليست مجرد نظرة مفرطة الحساسية لواحد من علماء البيولوجيا الاجتماعية من ذوى النفوذ. ذلك أننا سنجد المرة تلو الأخرى أن كتابات علماء البيولوجيا الاجتماعية الآخرين فيها مزاعم بأن الحروب البشرية وسيطرة الجنس وحب اقتناء الممتلكات الخاصة وكره الأغراب، هذا كله هو من الكليات البشرية، سواء كان البيولوجيون الاجتماعيون الذين يكتبون ذلك هم من علماء البيولوجيا، أم علماء الاقتصاد، أم علم النفس أم السياسة.

ولكن حتى ينادى المرء بمزاعم كهذه، فإنه يجب أن يكون مصاباً بالعمى تماماً حتى بالنسبة لتاريخ المجتمع الأوروبى، ولنأخذ مثلاً الزعم بوجود رهاب الأجانب كصفة كلية. والحقيقة أن مواقف الناس من الحضارات الأجنبية ،ومن الأقطار الأخرى تتباين على نحو هائل من طبقة اجتماعية للأخرى، ومن عصر للآخر. فالأرستقراطية الروسية فى القرن التاسع عشر كان تعتقد أن كل ما هو سلافى منحط، فكانت تفضل التكلم بالفرنسية، وتتوجه لألمانيا طلباً للموارد الحربية والتكنولوجية، فهل يمكن وصف هذه الأرستقراطية الروسية بأنها كان لديها رهاب الأجانب؟ وبوجه خاص فإن الطبقات المتعلمة والطبقات العليا كثيراً ما تتوجه للحضارات الأخرى، طلباً لما هو أرقى وأفضل.

وأحياناً تجرى مقابلات فى الراديو والتليفزيون الإيطالى مع علماء يتحدثون بالإنجليزية، وتترجم الأجوبة التى يجيبون بها عن أسئلة المعد إلى الإيطالية، وتصل إلى أسماع المستمعين بالصوت الأعلى للمترجم، بعد لحظات معدودة من إجابة العالم بالإنجليزية. وعندما يسأل معدو البرامج لماذا لايستحضرون عالماً إيطالياً للقيام بالبرنامج، فإنهم يجيبون بأن الإيطاليين ببساطة لايؤمنون بأى مزاعم عن العلم تلقى بالإيطالية، وأنهم يجب أن يسمعوها بالإنجليزية حتى يؤمنوا بصحتها.

ولا يوجد ما يكشف عن ضيق أفق المزاعم اللاتاريخية لتوصيفات البيولوجيا الاجتماعية أفضل من النقاش التقليدى عن اقتصاد الندرة، وعدم المساواة فى التوزيع. وبالتالى، فإن البروفيسور ويلسون يكتب أن «أعضاء المجتمعات البشرية يتعاونون أحياناً تعاوناً وثيقاً بأسلوب الحشرات، ولكن مايحدث بأكثر هو أنهم يتنافسون على الموارد المحدودة المخصصة للدور الذى يلعبه قطاعهم. فمن يقومون بأداء دورهم أفضل الأداء وأكثره استغلالاً استثماريا يكسبون عادة نصيباً من العائدات نسبته أكبر، أما من يكونون على أدنى درجة من النجاح، فإنهم يطاح بهم إلى أوضاع هى أدنى ما يرغب فيه»(٨). على أن هذا التوصيف يتجاهل تماماً القدر الهائل من تشارك البشر فى الموارد، والذى يحدث فى أنواع بأكملها من شتى أنواع المجتمعات الحديثة للصيد وجمع الثمار، مثل الإسكيمو، كما أن هذا التوصيف يشوه التاريخ بالكامل حتى تاريخ أوروبا. ومفهوم الاستغلال الاستثمارى لايصلح مثلاً للقرن الثالث عشر فى بلاد إيل دى فرانس، حيث كان المجتمع إقطاعياً زراعياً، والأرض فيه لايمكن أن تباع وتشترى، والعمل فيه لايمكن أن يُستأجر أو يُفصل، أما ما يسمى بآليّة السوق فقد كانت فى هذا المجتمع فى شكل بدائى من مقايضة لبضائع معدودة. وبالطبع.. فإن علماء البيولوجيا الاجتماعية يدركون أن هناك استثناءات لهذه التعميمات، ولكنهم يزعمون أن هذه الاستثناءات مؤقتة وغير طبيعية، وأنها لاتدوم إلا بوجود القوة والتهديد المستمرين. وبالتالى، فإن المجتمعات فى الحقيقة ربما تتعاون معاً بما يطلق عليه أنه أسلوب الحشرات، مثلما يفعل الصينى المجند فى حلته الزرقاء. ولكن هذا لايمكن فعله إلا مع إشراف وقسر متواصلين. وما إن يتراخى الانتباه حتى يرتد الناس إلى طرائقهم الطبيعية. فالأمر وكأننا نستطيع سن قانون، يفرض على كل فرد أنه يجب أن يمشى على ركبتيه، وهذا أمر ممكن فيزيقيا وإن كان مؤلماً إلى حد رهيب. وما إن يتراخى الانتباه حتى يقف كل واحد منتصباً مرة ثانية.

وعلى السطح من هذه النظرية عن الطبيعة البشرية، هناك ذلك الالتزام الأيديولوجى الواضح بالمجتمع الحديث الاستغلالى التنافسى الطبقى. أما تحت ذلك فثمة ايديولوجية أعمق، وهى أولوية الفرد على المجموع. ورغم اسم البيولوجيا «الاجتماعية»، إلا أننا نتعامل مع نظرية ليست عن السببية الاجتماعية، ولكنها عن السببية الفردية. فخصائص المجتمع ينظر لها على أن سببها هو الخواص الفردية التى لأعضاء المجتمع، وهذه الخواص، كما سوف نرى، يقال إنها مستمدة من جينات الأفراد الأعضاء فى المجتمع.

فإذا اشتبكت المجتمعات البشرية فى الحرب، فإن هذا بسبب أن كل فرد فى المجتمع هو فرد عدوانى. وإذا سيطر الرجال كمجموعة على النساء و سيطر البيض على السود، فإن هذا بسبب أن كل رجل هو كفرد تواق للسيطرة على كل امرأة، وكل شخص أبيض لديه مشاعر من عداء شخصى تنطلق عند مرأى البشرة السوداء. وبنيات المجتمع تعكس ببساطة هذه النزعات الفردية. والمجتمع ليس إلا مجموع مافيه من أفراد، تماما مثلما يُنظر الى الحضارة على أنها ليست إلا مجموع قطع وشذرات مفككة، هى عادات الأفراد وما يؤثرونه.

ومثل هذه النظرة تخلط خلطاً كاملاً بين ظواهر مختلفة تماماً، وهذا فى جزء منه خلط لغوى. فمن الواضح أنه عندما تحاربت بريطانيا وألمانيا فى ١٩١٤ لم يكن ذلك بسبب أن أفراد البريطانيين وأفراد الألمان أحسوا بالعدوانية. ولو كان الأمر هكذا لما كنا فى حاجة للتجنيد الإجبارى. فالإنجليز والكنديون والأمريكييون قتلوا الألمان، كما أن الألمان قتلوهم، وذلك لأن الدولة وضعتهم فى وضع يحتم عليهم فعل ذلك. ورفض الاستدعاء للتجنيد الإجبارى يعنى تنفيذ حكم بالسجن، ورفض إطاعة الأوامر فى الميدان يعنى الموت. والدولة تنتج أجهزة هائلة من دعاية وموسيقى عسكرية وحكايات عن فظائع ترتكب، حتى تقنع مواطنيها بأن حياتهم وعفة بناتهم فى خطر من جراء تهديد البرابرة. والخلط بين العدوانية الفردية والعدوانية القومية، هو خلط بين ما يحدث من اندفاع الهرمونات الذى قد يحس به الفرد عندما يلطمه آخر على وجهه، وبين جدول الأعمال السياسى القومى الذى يعمل على التحكم فى الموارد الطبيعية وخطوط التجارة وأسعار السلع الزراعية، ومدى ما يتاح من قوة العمل، فهذه كلها هى أصل الحرب. ومن المهم أن ندرك أن المرء ليس عليه أن يكون صاحب وجهة نظر خاصة عن محتوى الطبيعة البشرية، حتى يرتكب هذا الخطأ من القول بأن الأفراد هم سبب المجتمع. والأمير كروبوتكين الذى كان فوضوياً شهيراً قد زعم هو أيضاً أن ثمة طبيعة بشرية كلية ولكنها طبيعة تخلق التعاونية وتضاد الطبقية، لو سمح لها فحسب بحرية الفعل(٩). على أن نظريته هذه هى بدورها نظرية عن سيطرة الفرد كمصدر لما هو اجتماعى.

ونظرية البيولوجيا الاجتماعية إذ توصف منظومة كلية من المؤسسات الاجتماعية البشرية، التى يقال إنها نتيجة تترتب على الطبائع الفردية، فإنها بعدها تواصل الطريق فتزعم أن هذه الخواص الفردية، إنما هى مشفرة فى جيناتنا. فيقال لنا إن هناك جينات للنزعة الاستغلالية، وللسيطرة الذكورية، وللعدوانية، وبالتالى فإنه يقال لنا أيضاً إن الصراع بين أفراد الجنسين وبين الاباء والأبناء هى أمور مبرمجة وراثياً. ما الدليل على أن هذه الكليات البشرية المزعومة هى حقيقة فى جيناتنا؟ كثيراً ما يؤكد لنا ببساطة الزعم بأنها مادامت كلية، فإنها يجب أن تكون وراثية. ومن الأمثلة الكلاسيكية لذلك النقاش الذى دار عن السيطرة الجنسية؛ فيكتب البروفيسور ويلسون فى صحيفة (نيويورك تايمز) أنه «فى مجتمعات الصيد ـ جمع الثمار كان الرجال يصيدون والنساء

يمكثن فى البيت. وهذا التقسيم جد المتحيز مازال باقياً فى معظم المجتمعات الزراعية والصناعية [من الواضح أنه لم يصل لعلمه بعد أمر النساء، اللاتى يشاركن فى قوة العمل]، وعلى هذا الأساس وحده يبدو أن لهذا التقسيم أصلاً وراثيا»(١٠).

وهذه المحاجة تخلط بين الملاحظة وبين تفسيرها. وإذا لم يكن واضحا ما جُعل بينهما من علاقة غير مباشرة، فسوف يمكننا أن نزعم أنه مادام ٩٩ فى المائة من الفنلنديين ينتمون إلى اللوثرية، فإنه يجب أن يكون لديهم چين لها.

ثمة دليل آخر يقدم عن الحتمية الوراثية للصفات الكلية البشرية، وهو الزعم بأن الحيوانات الأخرى تظهر نفس الصفات، وبالتالى فإنه يجب أن يكون لدينا تواصل وراثى معهم. فيوصف النمل بأنه يتخذ «عبيداً» وتكون له «ملكات». ولكن عبودية حشرات النمل لاتعرف شيئاً عن السوق التى يقام فيها المزادات، ولا عن البيع والشراء، ولا عن الطبيعة السلعية فى جوهرها لعلاقات العبيد فى المجتمع البشرى. والحقيقة هى أن عبيد النمل هم غالباً عبيد ينتمون دائماً لنوع آخر، فعبودية النمل فيها من الملامح ماهو أكثر شبهاً بعملية استئناس الحيوان. كما أن حشرات النمل ليس لها «ملكات». أما تلك الحشرة التى تقوم بدور مصنع للبيض، والتى تغذّى بالقوة، وتحبس فى غرفة خاصة وسط مستعمرة النمل وتسمى بالملكة، فإنه ليس فى حياتها أدنى مشابهة لحياة إليزابيث الأولى أو الثانية أو لأدوارهما السياسية المختلفة فى المجتمع. بل إن كلمتى «عبد» و «ملكة» هى مجرد بطاقات تصنيف لتسهيل الوصف. ثم يزعم لنا أن «عبودية» النمل أو «ملوكيته» فيها تواصل سببى مهم مع نظائرها البشرية، فيقال إنها نتاج القوى نفسها من الانتخاب الطبيعى.

وهذا الخلط بين صفات الحيوانات وصفات المجتمع البشرى هو مثل لمشكلة (التماثل) homology والتشابه analogy. فالصفات المتماثلة يقصد بها البيولوجيون تلك الخواص للكائنات الحية، التى تتشارك فيها أنواع مختلفة لأن لها أصلاً بيولوجياً واحداً، التى وبعض سلف وراثى بيولوجى مشترك، وهى تستقى من ملامح مشتركة فى التشريح والتنامى. فعظام ذراع الإنسان تبدو مختلفة جداً عن عظام جناح الخفاش وتستخدم لأغراض مختلفة تماماً، إلا أنها هى وعظام جناح الخفاش متماثلة لأنها من الوجهة التشريحية مستمدة من نفس البنيات، ومتأثرة بنفس الجينات. ومن الناحية الأخرى فإن جناح الخفاش مشابه فحسب لجناح الحشرة بمعنى أنهما يبدون متشابهين على السطح فقط، ويبدوان وكأنهما يؤديان نفس الوظيفة، ولكنهما ليس لديهما أصل مشترك على المستوى الوراثى أو المستوى التشكيلى. وإنما يكون التشابه فى عين الملاحظ. كيف نقرر أن عبيد وملكات النمل تشبه عبيد البشر وعائلاتهم الملكية؟ كيف نقرر أن مانراه من حياء فى أفراد البشر هو مماثل لسلوك الحيوانات الذى نسميه حياء؟ إن مايحدث هو أن ما للبشر من تصنيفات يضفَى على الحيوانات بالقياس بالتشابه، وهذا فى جزء منه من باب التسهيل اللغوى، ثم يحدث بعدها أن «نكتشف»

هذه الصفات فى الحيوانات، ويُعاد إضفاؤها على البشر، وكأن لها أصلاً واحداً. والحقيقة أنه لايوجد أدنى دليل على أن الأساس التشريحى والفسيولوجى والوراثى لما يسمى بالعدوانية فى الجرذان فيه أى شيء مشترك مع غزو الألمان لبولندا فى ١٩٣٨*.

والنوع الثالث من الأدلة التى تطرح لوجود أساس وراثى للسلوك الاجتماعى البشرى هو تقرير قابلية الصفات البشرية للتوارث. فيقال إنه مما هو قابل للتوارث خواص مثل الانطوائية والانبساطية، وإيقاع النشاط الشخصى، والأنشطة الحركية ـ النفسية وأنشطة الألعاب الرياضية، والشهوانية الجنسية، والسيطرة، والاكتئاب، بل وحتى النزعة إلى المحافظة والنزعة الليبرالية. ولكن الدليل على قابلية هذه الصفات للتوارث هو دليل لاوجود له بالكلية. ويجب أن نتذكر هنا أن الوراثيات هى دراسة لأوجه الشبه والاختلاف بين الأقارب. ونحن نحكم بأن أموراً ما هى قابلة للتوارث، عندما يكون الأقارب الوثيقين أكثر تشابهاً عن الأقارب البعيدين أو الأفراد من غير الأقرباء. ولكن المشكلة فى الوراثيات البشرية بالذات هى أن التشابه بين الأقارب لاينشأ فحسب عن أسباب بيولوجية، ولكنه قد ينشأ أيضا عن أسباب حضارية، حيث إن أعضاء نفس العائلة الواحدة يتشاركون فى نفس البيئة. وقد كانت هذه دائماً هى مشكلة الوراثيات البشرية سواء كنا نتحدث عن صفات للشخصية أو صفات تشريحية. ومعظم التقارير عن قابلية الصفات الشخصية للتوراث، هى مجرد ملاحظات بأن الوالدين والأبناء يشبه الواحد منهم الآخر من وجهة ما. وفى أمريكا الشمالية نجد أن أعلى تشابه بين الآباء وذريتهم بالنسبة للصفات الاجتماعية، هو التشابه فى الحزب السياسى والطائفة الدينية، ولكن مامن شخص جاد سيؤمن بأن الجينات هى التى تحدد هذه الصفات. وملاحظة وجود تشابه بين الوالدين وذريتهم ليست بالدليل على تماثلهما بيولوجياً. فهاهنا خلط بين الملاحظة وبين الأسباب المحتملة. والحقيقة أنه مامن دراسة واحدة عن الصفات الشخصية فى العشائر السكانية للبشر تفصل بنجاح بين أوجه التشابه التى تكون بسبب تشارك الأسرة فى الخبرة، وأوجه التشابه التى تكون بسبب الجينات. وبالتالى، فنحن فى الحقيقة لانعرف شيئاً عن قابلية توارث الصفات البشرية المزاجية والعقلية، التى يفترض أنها أساس التنظيم الاجتماعى.

وثمة مشكلة أشد عمقاً. ذلك أنه حتى يتم إجراء دراسة عن قابلية التوارث، بل وحتى تكون هذه الدراسة صحيحة، فإن الأمر يتطلب وجود اختلافات بين الأفراد. فإذا كان كل فرد يتطابق مع الآخر فى ناحية ما؛ أى إذا كان كل فرد له بالضبط الجينات نفسها لخاصية ما، فإنه لن تكون هناك طريقة لبحث أمر قابلية هذه الخاصية للتوارث، ذلك أن البحوث الوراثية تتطلب وجود تبايناً بين الأفراد. والنظرية البيولوجية الاجتماعية تزعم أن كل أفراد البشر يتشاركون فى جينات للعدوان، ولرهاب الأجانب، ولسيطرة الذكور، وهلم جرا. ولكن لو أننا كلنا نتشارك فى هذه الجينات، ولو كان التطور قد جعلنا كلنا متماثلين فى هذه الطبيعة البشرية، فإنه من حيث المبدأ لن تكون هناك أى

* الصحيح أن هذا الغزو حدث فى ١٩٣٩، وكان السبب المباشر لقيام الحرب العالمية الثانية (المترجم).

وسيلة للبحث فى أمر قابلية الصفات للتوارث. ومن الناحية الأخرى، إذا كان هناك تباين وراثى بين أفراد البشر فى هذه النواحى، فعلى أى أساس إذاً نعلن أن هذه الظاهرة أو الأخرى هى من الطبيعة البشرية الكلية؟ ولو كانت عدوانيتنا وحبنا للذهاب للحرب هما من الطبيعة البشرية التى تتحتم وراثيا، لوجب أن نفترض إذاً أن نصير السلام المشهور أ. ج. موستى ينقصه هذا الجين، وبالتالى، فإنه بمعنى ما يعد أقل من إنسان. ومن الناحية الأخرى، إذا كان موستى يحوز هذا الجين ولكنه نصير للسلام، فسيبدو أن الجينات ليست بهذا القدر من السلطان فى تحديد السلوك. لماذا لانكون كلنا مثل أ. ج. موستى؟ هناك تناقضات عميقة، عندما نزعم فى الوقت نفسه أننا كلنا نتماثل وراثياً فى نواحٍ معينة، وأن جيناتنا ذات سلطان بالغ القوة فى تحديد سلوكنا، ثم نلاحظ فى نفس الوقت أن أفراد الناس يختلفون.

وأخيرا، فإن ثمة سذاجة بيولوجية غير عادية وجهل بمبادئ بيولوجيا التنامى تتضمنهما تلك المزاعم التى تقول إن الجينات تجعلنا نسلك بطرائق معينة. فدنا يعمل بطرائق عديدة للتأثير فى تنامى الكائنات الحية.

وأولاً، فإن التتابع المضبوط للأحماض الأمينية فى بروتيناتنا ـ وإن كان مشفرا فى جيناتنا ـ إلا أنه ما من أحد سيطرح أن تتابع الأحماض الأمينية لبروتين معين يستطيع فى حد ذاته أن يجعلنا من الأحرار أو المحافظين. وثانيا، فإن الجينات لها تأثيرها وهى موجودة فى سياق التنامى، وفى جزء من الجسد يلزم أن تنتج فيه بروتينات معينة، وهذا بدوره يؤثر فى انقسام الخلية ونموها. وبالتالى.. فلعل من الممكن الزعم مثلاً بأن هناك نمطاً ثابتاً للعصبات التى فى جهازنا العصبى المركزى، هو نمط يتأثر بما يحدث للجينات من تشغيل وإيقاف تشغيل أثناء التنامى، بما يجعلنا نصبح من أنصار الحرب أو أنصار السلام. على أن هذا سيتطلب وجود نظرية لتنامى الجهاز العصبى المركزى، لاتسمح بوجود حوادث عارضة فى التنامى، ولا تسمح بأى دور لتخليق البنية الذهية بواسطة الخبرة، أو هى تسمح فحسب بدور جد صغير لذلك. هذا، والتنظيم الاجتماعى البدائى لحشرات النمل بما لديها من بنية للعمل وعلاقات بين الأفراد، يعد تنظيماً حد بسيط بالمقارنة بما لدينا، ولكن حتى تنظيم النمل الاجتماعى هذا يكون مرناً جداً بالنسبة للمعلومات عن العالم الخارجى. فمستعمرات النمل تغير من سلوكها الاجتماعى الجماعى بمرور الوقت بما يعتمد على طول الزمن، الذى شغلت به المستعمرة منطقة بعينها. والأمر سيتطلب مجموعة هائلة من الافتراضات حتى نطرح أن الجهاز العصبى المركزى البشرى، الذى فيه وصلات عصبية أكثر آلاف المرات مما فى النمل، هذا الجهاز تكون استجابته للظروف استجابة وراثية ثابتة فى قالب نمطى بالكامل. فالظروف الاجتماعية البشرية ذات تنوع لايصدّق، الأمر الذى سيتطلب قدراً كبيراً من دنا هو ببساطة أكبر مما نحوزه. ونحن لدينا من دنا البشرى مايكفى لصنع مايقرب من ٢٥٠,٠٠٠ جين. ولكن هذا لن يكون كافياً ليحدد ذلك القدر الذى

لايصدق من التعقد فى التنظيم الاجتماعى البشرى، لو كان هذا مشفراً بالتفصيل بواسطة وصلات عصبانية خاصة. وما إن نقر بأنه لايمكن أن تكون هناك شفرة وراثية إلا للخطوط الخارجية للسلوك الاجتماعى، والتى تتصف بأنها خطوط عامة أشد العمومية، ما إن نقر بذلك حتى يجب بعدها أن نسلم بوجود قدر هائل من المرونة يعتمد على مايوجد من ظروف معينة.

والخطوة الأخيرة فى المحاجة البيولوجية الاجتماعية هى القول بأن ما نحوزه من جينات متعلقة بالطبيعة البشرية الكلية قد تأسست فينا من خلال التطور بواسطة الانتخاب الطبيعى. بمعنى أنه ذات يوم كان أفراد البشر يتباينون وراثياً من حيث الدرجة التى تكون عليها عدوانيتهم، ورهابهم للأجانب، ونزعتهم لتلقن العقيدة، وسيطرة الذكور وهلم جرا، ولكن الأفراد الذين يكونون على أقصى درجة من العدوانية أو أقصى نزعة للسيطرة الذكورية يخلفون نسلاً أكثر، وبالتالى.. فإن الجينات التى خلفت فينا فى النهاية بصفتنا نوع من الأنواع، هى تلك الجينات التى تحتم الآن هذه الصفات. ومحاجة الانتخاب الطبيعى تبدو جد بسيطة ومباشرة بالنسبة لبعض أنواع الصفات. وكمثل، فإن هناك محاجة بأن من كانوا أكثر عدوانية من أسلافنا، هم الذين خلفوا ذرية أكثر؛ لأنهم قد انقضّوا على الأفراد الأقل عدوانية واستأصلوهم. والأسلاف الأكثر استغلالية سيحوزون موارد أكثر عندما تقل الإمدادات، الأمر الذى يؤدى إلى موت الآخرين جوعاً. ومن السهل فى كل حالة من هذه الحالات أن نصنع قصة معقولة، تفسر القدرات التكاثرية الفائقة التى يتفوق بها نموذج على الآخر.

على أن هناك بعض الصفات التى يقال عنها إنها كلية، ولكنها لاتتلاءم بهذه السهولة مع تلك القصة عن التميز التكاثرى الفردى. وأحد أمثلة ذلك، هو مثل يناقشه كثيراً علماء البيولوجيا الاجتماعية، وهو السلوك الإيثارى. لماذا يحدث أننا فى ظروف معينة نكون متعاونين، ولماذا يحدث أحياناً أننا نتخلى من أجل الآخرين عما يبدو أنه ذو فائدة مباشرة لنا؟ وحتى يفسر علماء البيولوجيا الاجتماعية النزعة الإيثارية فإنهم يقدمون لنا نظرية الانتخاب بالأهل. فالانتخاب الطبيعى لصفة ما لا يتطلب دائماً أن من يحوزونها من الأفراد يخلفون ذرية أكثر، وإنما هو يتطلب فحسب أن الجينات الى تشفر للصفة سيتم تمثيلها فى أعداد أكبر من أفراد أجيال المستقبل.

وهناك طريقتان لزيادة تمثيل جينات المرء فى أجيال المستقبل: إحداهما هى أن يخلف المرء ذرية أكثر، والأخرى هى أن يتم ترتيب الأمر بحيث أنه حتى إذا لم يترك المرء ذرية أكثر، فإن أقاربه يفعلون ذلك؛ حيث إن الأقارب الأوثق قرابة يتشاركون فى الجينات. وبالتالى.. فإن من الممكن أن يضحى أحد الأفراد تضحية كاملة بتكاثره، بشرط أن يترك إخوته وأخواته أطفالاً أكثر كثيراً. وبهذا، فإن نوع جيناته سوف يزيد بطريقة غير مباشرة من خلال أقاربه، وبهذه الطريقة غير المباشرة فإنه سوف يخلف ذرية أكثر. وأحد أمثلة هذه الظاهرة هو ما يوجد بين الطيور من الأفراد «المساعدين على بناء

العش»، إذ يقال إن أفراداً من الطيور لاتتكاثر، وإنما تقدم المساعدة للأقارب الأقربين، الذين يمكنهم بالتالى تربية عدد من الذرية أكبر من العدد العادى، وفى النهاية يخلف من جينات العائلة عددا أكبر. وحتى يعمل الانتخاب بالأهل بنجاح، يجب أن يخلف الأقرباء عدداً فائضاً من الذرية فيه زيادة كافية. وكمثل، فإنه إذا ضحى أحد الأفراد بتكاثره هو نفسه، فإن اخوته وأخواته ينبغى أن يصبح لهم عدد من الذرية، يصل إلى ضعف العدد العادى. وعلى الأقل فإنه يوجد أناس لديهم القدرة على أن يقصوا علينا حكاية ما قد تجعل هذا كله معقولاً.

ثم تبقى معنا بعد ذلك تلك الصفات، التى لاتفيد حتى الأقرباء بأى فائدة متمايزة، ومثل ذلك هو وجود نزعة إيثارية عامة تجاه كل أعضاء النوع الآخرين. فلماذا نسلك سلوكاً طيباً مع الأغراب؟ وبالنسبة لهذه الظاهرة يقدم لنا علماء البيولوجيا الاجتماعية نظرية «الإيثارية المتبادلة». والمحاجة هنا هى أننا حتى إذا كنا أنا وأنت على غير صلة قرابة، فإنى عندما أصنع لك جميلاً يكلفنى شيئاً ما، فسوف تتذكر أنت هذا الجميل وترده لى فى المستقبل، وعن طريق هذا المسار غير المباشر سوف أنجح فى زيادة تكاثرى أنا نفسى. وكثيراً ما يقدم كمثل لذلك مثل الشخص الذى يغرق. فأنت ترى أحد الأشخاص، وهو يغرق، فتقفز لإنقاذه حتى ولو خاطرت بحياتك أنت نفسك. وفى المستقبل، فإنك إذا كنت ستغرق، سوف يتذكر الشخص الذى أنقذت حياته ماحدث، وسينقذ حياتك فى امتنان. وأنت بهذا المسار غير المباشر، سوف تزيد مايكون لك أنت نفسك من من احتمالات البقاء والتكاثر على المدى الطويل. والمشكلة فى هذه الحكاية هى بالطبع لو كان الذى أنقذته فى الماضى واحداً أو واحدة ممن لايحسنون السباحة، فسيكون هذا الشخص هو آخر شخص فى العالم تود الاعتماد عليه لإنقاذك عند غرقك.

والصعوبة الحقيقية فى عملية التفسير هذه التى تسلم بالفائدة المباشرة، أو بالانتخاب بالأهل، أو بالإيثارية المتبادلة، هى أنه إذا كان أى من ذلك له حقاً فائدته فى التفسير.. فإن الأمر هكذا سيجعل فى إمكاننا اختراع أى قصة، تفسر لنا الميزة الانتخابية الطبيعية لأى صفة يمكن تخيلها. وعندما تجمع الميزة الانتخابية الفردية مع احتمال وجود انتخاب بالأهل والايثارية المتبادلة، سيصبح من الصعب أن نتصور وجود أى صفة بشرية لايمكن أن يخترع لها سيناريو معقول عن فائدتها الانتخابية. والمشكلة الحقيقية هى أن نكتشف أى هذه الحكايات هى الحكاية «الحقيقية». ومن الواجب علينا هنا أن نميز بين الحكايات المعقولة، وبين الأمور التى «يمكن» أن تكون حقيقية، وبين الحكايات «الحقيقية» أى الأمور التى حدثت بالفعل. كيف لنا أن نعرف أن الإيثارية البشرية قد نشأت بسبب الانتخاب بالأهل أو الانتخاب بالإيثارية المتبادلة؟ وعلى أقل القليل، فإن لنا أن نسأل عما إذا كان هناك أى دليل على أن مثل هذه العمليات الانتخابية هى مما يجرى حاليا، ولكن مامن أحد فى الحقيقة قد سبق له قط أن قاس فى أى عشرة سكانية بشرية مدى ما يوجد واقعياً فى أى سلوك بشرى من ميزة أو ضرر بالنسبة

للتكاثر. وكل التفسيرات البيولوجية الاجتماعية عن تطور السلوك البشرى هى حكايات من كلام مرسل، مثل حكايات روديارد كبلنج* عن طريقة حصول الجمل على سنامة، وطريقة حصول الفيل على خرطومه. إنها مجرد حكايات، وهكذا يتحول العلم إلى لعبة.

وكل السياق المنطقى الذى فى البيولوجيا الاجتماعية هو مما يمكن توضيحه من مثلين، أحدهما يقصد به علماء البيولوجيا الاجتماعية أنه مجرد مثل خيالى هو بمثابة تمرين تعليمى، والآخر مثل يأخذونه مأخذاً جدياً. أما المثل الخيالى فيتعلق بمشكلة السبب فى أن الأطفال يكرهون السبانخ بينما يحبها البالغون. وهذا المثل متضمن فى مرجع للمدارس الثانوية، كتبه علماء البيولوجيا الاجتماعية لتمرين الأطفال على الفكر التكيفى(١١). والخطوة الأولى هى توصيف لصفة الإنسان الكلية، فالأطفال كلهم يكرهون السبانخ. وحتى يمكن رؤية الحقيقة الكلية لهذا الزعم لن يلزم علينا إلا أن ننظر فيما حولنا ونسأل أصدقاءنا. وفوق ذلك فإننا عندما ننظر حولنا.. سنجد أن البالغين يأكلون السبانخ. كيف حدث ذلك؟ سنتخيل أن هناك جيناً يسبب كره الأطفال للسبانخ، ولكنه يسمح للبالغين بحبها. ولنلاحظ هنا أن ليس هناك أى دليل على وجود مثل هذا الجين اللاممكن، وإنما هو ببساطة قد تم افتراضه. والسبانخ تحوى مادة هى حمض الأوكساليك، وهذا يعوق امتصاص الكالسيوم، الذى يحتاجه صغار الأطفال لنمو عظامهم. وبهذا فإن أى طفل فى الماضى كان لديه الجين الخطأ، وأكل السبانخ سيصبح نموه منقوصاً، وسيعانى من الكساح، ولعله هكذا لم يخلف ذرية كثيرة. (وإن كان من غير الواضح بالمرّة كيف تتعارض السيقان المعوجة مع التكاثر ومع طول العمر). ومن الناحية الأخرى، فإن عظام البالغين هى عظام قد توقفت عن النمو، وبهذا فإن الكالسيوم ليس مهماً لها، ويكون البالغون أحراراً للاستفادة من العناصر المغذية فى السبانخ، وبهذا فإنه لايوجد اتجاه انتخابى ضد حبهم لها. وكنتيجة لذلك فإن أحد جوانب الطبيعة البشرية التى تتحتم وراثياً، هو أن يكره الأطفال السبانخ، أما البالغين فيحبونها. هانحن لدينا قصة فصيحة تماماً عن حقيقة كلية مزعومة بالنسبة للطبيعة البشرية. وينبغى ألا ندع سخافة هذه الحالة تشد انتباهنا بعيداً عن ملامحها الرئيسية، فالمقصود منها أن تعلّم الطلبة كل العناصر فى محاجة المذهب الطبيعى عن الطبيعة البشرية، فهى تصنع ملاحظة معممة عن طريق النظر فيما حولنا. وهى تفترض جينات دون أى دليل، ثم هى تقص علينا حكاية معقولة، أو لعلها غير معقولة.

هيا الآن ننظر فى طريقة تطبيق ذلك على حالة جادة، يناقشها على نطاق واسع علماء البيولوجيا الاجتماعية: وهى وجود نزعة جنسية مثلية* فى المجتمعات البشرية. والجنسية المثلية فيما يزعم هى مشكلة بيولوجية، والسبب هو أنه حيث إن ذوى الجنسية

* روائى وشاعر انجليزى (١٨٦٥ ـ ١٩٣٦) كثيراً ماكتب حكايات عن الهند وغاباتها وحيواناتها وهو معروف بنزعته الاستعمارية (المترجم).

* الميل للممارسة الجنسية مع الجنس المماثل، أى ميل الذكور للذكور جنسياً، وميل الإناث للإناث. (المترجم).

المثلية هم بأى حال لايخلفون ذرية، فإن جينات الجنسية المثلية كان ينبغى أن تختفى منذ زمن طويل. لماذا لم تختف هذه الجينات؟ أولاً، يفترض علماء البيولوجيا الاجتماعية أن ذوى الجنسية المثلية يخلفون عدداً أقل من الذرية. وهذا يتضمن توصيفات للسلوك الجنسى البشرى، ينقسم فيه العالم بين أصحاب النزعة الجنسية المغايرة وأصحاب النزعة الجنسية المثلية؛ أى إلى صنف يخلف ذرية وصنف آخر لايخلف ذرية. إلا أن هذا التوصيف لا يتوافق مع ما نعرفه عن السلوك الجنسى البشرى. والحقيقة هى أن العالم لاينقسم بين هذين الصنفين. وعلى العكس فإن هناك مدى متصلاً من السلوك الجنسى، ابتداء من أفراد لايمارسون قط إلا السلوك الجنسى المغاير، ثم مروراً بأولئك الذين لهم مدى أوسع بعض الشىء من الخبرات، ثم أولئك الذين لهم على وجه منتظم سلوكيات جنسية مزدوجة*، وانتهاءً بمن يكونون بالكلية ذوى نزعة جنسية مثلية. وحسب عدد من البحوث المسحية.. فإن حوالى النصف من كل الذكور فى الولايات المتحدة قد مارسوا الاتصال الجنسى المثلى مرة واحدة على الأقل. وفوق ذلك، فإن هذا المدى من السلوكيات يتباين تاريخيا حسب الطبقة الاجتماعية، فقد كانت النزعات الجنسية المزدوجة واسعة الانتشار بين الطبقات العليا فى روما الكلاسيكية واليونان الكلاسيكية، بل إن ما كان يعد من الممارسات الجنسية المثلية المعتادة فى هذه المجتمعات، يختلف عن الممارسات المثلية الموجودة حالياً. وفوق ذلك ـ وبما يثير العجب ـ لايوجد أدنى دليل عن معدلات التكاثر النسبية عند الناس المختلفين فى تاريخهم الجنسى. ومن الواضح أن من يقتصرون «بالكلية» على السلوك الجنسى المثلى لايخلفون أى ذرية، وذلك قبل ما حدث مؤخراً من الوصول إلى الإمناء الصناعى. ولكن مامن شئ معروف عن معدلات التكاثر عند أولئك، الذين كانوا بالكامل ذوى نزعة جنسية مغايرة فى مقابل أولئك، الذين لهم مدى أوسع من الخبرة الجنسية. وبالتالى.. فإننا لانعرف مثلاً إذا ما كان شخص له نزعة جنسية مغايرة فى ٤٠ فى المائة من اتصالاته (أو اتصالاتها)، وله نزعة مثلية فى ٦٠ فى المائة من الاتصالات، سيكون له (أولها) عدد من الأطفال أقل مما لشخص هو بالكامل ذو نزعة مغايرة. والحقيقة هى أننا يمكننا أن نحاج بأن النزعة الجنسية المزدوجة هى مظهر لوجود قدر أعظم من الشهوة الجنسية العامة، وأن الأمر قد ينتهى إلى أن الأفراد ذوى النزعة الجنسية المزدوجة يخلفون ذرية أكثر... إننا ببساطة لانعرف الاجابة عن هذا السؤال.

وثانياً، لايوجد مطلقاً أى دليل على أن هناك أى اختلافات وراثية بين الأفراد ذوى الميول الجنسية المختلفة. ولو كان حقيقياً أن ذوى النزعة الجنسية المثلية لايخلفون ذرية، ستكون هناك مشكلة عند دراسة قابلية توارث السلوك الجنسى المثلى. والحقيقة أنه لاتوجد دراسات لقابلية توارث الميول الجنسية، وبالتالى فإن المزاعم بوجود استعداد وراثى للأشكال المختلفة من السلوك الجنسى هى مجرد خيال خالص.

* أى ممارسة الجنس مع أفراد الجنس المغاير، ومع أفراد الجنس المماثل (المترجم).

وأخيراً، فإن هناك مشكلة لحكاية تطورية. وهى الحكاية التى يرويها علماء البيولوجيا الاجتماعية عن المساعدين فى بناء العش. فكان مما يحاج به فى الماضى أن ذوى الجنسية المثلية لايخلفون هم أنفسهم أى ذرية، ولكنهم يساعدون أخوانهم وأخواتهم ذوى النزعة الجنسية المغايرة على تربية عدد أكثر من الأطفال، وذلك بأن يشركونهم فى مواردهم، وأن هذا التعويض فيه الكفاية للإبقاء على الجنسية المثلية فى العشيرة السكانية. ويجب أن نتذكر هنا أن ذوى الجنسية المثلية غير المتكاثرين، يجب أن يساعدوا إخوانهم وأخواتهم المساعدة الكافية؛ بحيث يكون لهؤلاء الأقارب عدد من الذرية هو ضعف العدد المعتاد، إن كان للانتخاب بالأهل أن يعمل بنجاح. ولكن ما من دليل على أنه يوجد مساعدين على إنشاء العش فى المجتمعات البشرية. ولو كان أسلافنا البعيدون فيما قبل التاريخ يماثلون أى مماثلة مجتمعات الناس الحديثة للصيد وجمع الثمار، لكانت المشاركة العامة فى الموارد ظاهرة شائعة، ليس فحسب بين أفراد العائلة، وإنما بين أفراد قرى بأكملها بحيث إن «العش» سوف يشمل غير الأقرباء. ولكننا لانعرف شيئاً عن العدد النسبى للذرية التى يخلفها حالياً الأفراد الذين لديهم أشقاء وشقيقات ذوى جنسية مثلية، ذلك أنه مامن أحد قد قاس حجم العائلات فيما يتعلق بهذه المسألة.

وإذاً، فإن كل المناقشة عن الأساس التطورى للميول الجنسية هو حكاية مخترعة من أولها لآخرها. إلا أنها حكاية تظهر فى كتب المراجع، وفى المناهج الدراسية للمدارس الثانوية والجامعات، وفى الكتب الشعبية والصحف. وهى تكتسى بشرعية يسبغها عليها الأساتذة المشهورون ووسائل الإعلام القومية والدولية، بل إن لها مرجعية العلم. وبمعنى مهم، فإنها «هى» العلم، لأن العلم لم يعد ما يتكون ببساطة من مجموعة من الحقائق الصادقه عن العالم، وإنما هو كيان من مزاعم ونظريات عن العالم، صنعها أناس يدعون بالعلماء. والعلم فى جزء كبير منه يتكون مما يقوله العلماء عن العالم أيّاً ما قد يكونه الوضع الحقيقى للعالم.

إن العلم هو أكثر من مجرد مؤسسة تُكرّس لتناول العالم الفيزيقى، ذلك أن له أيضاً وظيفة فى تشكيل الوعى فيما يتعلق بالعالم السياسى والاجتماعى. والعلم بهذا المعنى هو جزء من العملية العامة للتعليم، ومزاعم العلماء هى الأساس لقدر كبير من مشروع تشكيل الوعى. والتعليم على وجه العموم، والتعليم العلمى على وجه الخصوص، لايقصد به فقط أن يجعلنا أكفاء للتعامل مع العالم، وإنما يقصد به أيضاً تشكيل مواقفنا الاجتماعية. إن أحداً لم ير هذا بوضوح أكبر مما رآه دانييل وبستر، ولم يكن أحد أميناً بهذا الشأن أكثر منه، ووبستر هو أحد الشخصيات السياسية المحافظة أقصى المحافظة فى التاريخ الأمريكى، وقد كتب أن «التعليم هو شكل حكيم وليبرالى من الشرطة يمكن بواسطته تأمين الملكية والحياة وسلام المجتمع».